بسم الله الرحمن الرحيم

رد العلامة الدجوي على الشوكاني في مسألة تقليد المذاهب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد جاء هذا الرد ضمن مقالات الشيخ (رحمه الله) المنشورة في مجلة الأزهر، حيث ورده سؤال حول كلام للشوكاني يذم فيه من يقلدون المذاهب، وها أنا أنقله لكم أخوتي الكرام على حلقات ليعم نفعه ويحصل لكاتبه أجره بإذن الله، وقد نقلت هوامش الكاتب في نهاية كل حلقه.

وقد جاء من ضمن السؤال نقل عن كلام الشوكاني جاء فيه :

((ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا ، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله بهما وطلبه منهم للعمل بما دلاّ عليه وأفاداه ، فعملتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق ، ولم تعضد بعضد الدين .. فدعوا أرشدكم الله وإياي كتبا كتبها الأموات من أسلافكم (1) واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأي أقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم ، وهو الإمام الأول محمد بن عبدالله ، صلى الله عليه وسلم . .)) اهـ

فكان جواب الشيخ الدجوي ما يلي:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه ، وبعد :

فهذا كلام لا يصدر إلا ممن غلظ فهمه وجمدت عواطفه وقسا قلبه وقل احتياطه ،

فاستهان بإجماع العلماء وكلام أئمة الهدى الذين لا يقولون في الدين بشيء إلا إذا كان لهم مستند من كتاب الله وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، كما سنبينه .

وذلك منه اغترارا بما زعمه لنفسه من زعامة كاذبة واجتهاد باطل ، ولو احتاط في أمر الدماء وتحرج من خطر التكفير ، أو احترم اتفاق المسلمين وكلام غيره من العلماء المبرزين ، لم يجازف بإلقاء القول على عواهنه ضد أمة بأسرها ، وفيها من العلماء والفضلاء والأولياء والمحدثين والمفسرين وعلماء التوحيد والفلسفة ما أدهش التاريخ وأنطق أعداء الإسلام بفضل الإسلام .

و ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا)) وكل من قدس نفسه واتبع هواه فلا بد أن يضل عن سبيل الله ، وكل من امتلأ أنانية وكبرا فلا بد أن يحتقر المسلمين ولا يحترم العلماء السابقين (2) (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) .

هؤلاء إذا حللنا نفوسهم وجدناها مملوءة قسوة لا تقل عن قسوة قطاع الطريق ، الذين يستهزئون بسفك الدماء وقتل الأبرياء ، غير أن أولئك يسفكونه ليلا وهؤلاء يسفكونه نهارا لو قدروا ، وأولئك يسفكونه خائفين وجلين ، وهؤلاء يسفكونه فرحين متبجحين (3) وأولئك لا يصفون بألسنتهم الكذب ولا يتقولون على الله ، وربما رجعوا إليه نادمين مستغفرين ، وهؤلاء يلصقون ذلك بدين الله مفترين على الله الكذب قائلين : هذا حلال وهذا حرام ، هذا كفر وذاك إسلام .

فجدير بهم أن يغلق باب التوبة في وجوههم ، فإنهم من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فكيف يتوبون أو يستغفرون وإذا قيل لهم (

لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

هذه النَّزعة ، نزعة تكفير المسلمين والاستهانة بدمائهم ، هي نزعة الخوارج الذين هم شر الطوائف ، حتى ذهب كثير من العلماء – وتشهد لهم الأحاديث الصحيحة – إلى تكفيرهم ، وما نرى طائفة على نقيض ما جاء به الأنبياء من الشفقة والرحمة والمحبة والوئام وعدم الانقسام مثل هذه الطائفة .

وبعد فالقول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد على كل واحد يجافي المعقول قبل أن يخالف المنقول ، فما أدري بأي قلم يكتبون وبأي عقل يتفكرون ، فإن الناس خلقوا على درجات متفاوتة لا يحصيها إلا الله (وإنما العلم بالتعلم) ومبنى هذا الوجود على أن الصغير يرجع إلى الكبير ، والجاهل يرجع إلى العالم ، والضعيف يرجع إلى القوي .

وقد قال (صلى الله عليه وسلم) : (قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإن شفاء العَي السؤال). قال ذلك في قوم أفتوا مجروحا أن يغتسل ويغسل جرحه ولا يتيمم ، فمات . رواه أبو داود وابن ماجه. (4)

وقال تعالى : (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وقال : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) فعِلَّة الأمر بالسؤال هو الجهل ، والأمر المقيد بالعلة يتكرر بتكررها ، ومعلوم أن العلماء لم يزالوا يُستفتون فيفتون ويتبعهم الناس من غير إبداء المستند ، ثقةً بدينهم وأمانتهم ومزيد معرفتهم ، حتى شاع وملأ البقاع ولم ينكره أحد ، فكان إجماعا .

ولو أوجبنا على كل أحد أن يؤهل نفسه للأخذ من الكتاب والسنة وما يجب لذلك لأدى الأمر إلى إبطال المعايش والصنائع ، ولكان تكليفا بما لا يطاق .

ولا يمكننا أن نطيل في النصوص الآن ، ولا فيما ورد من خطر تكفير المسلم وعدم احترام دمه وماله وعرضه ، ولكن نقول : إن سنة الله في البشر أن يرجع الناس في كل شيء إلى العارفين به المبرزين فيه ، ولو لم يفعلوا ذلك لاختلّت أمورهم وفسد نظامهم ، ولأصبح العالم فوضى ، ولكان الهلاك أسرع إليه من السلامة .
[FONT='Times New Roman','serif'] [/font]
وانظر لو اجتهد كل إنسان برأيه في الطب ، أو ذهب المريض إلى من لا يحسن علاجه ، فماذا تكون النتيجة ، وكيف يكون الحال إذا ألقينا بقيادة الحروب إلى الجهال الأغرار أو الجبناء الأغمار ، أو خولنا كل أحد حرية الرأس ورسم الخطط في مجالدة الأعداء والذود عن بيضة الإسلام ، أفلا تكون النتيجة خراب البلاد وهلاك العباد !

وقل مثل ذلك في التجارة والزراعة وكل حرفة من الحرف وصنعة من الصنائع ، وها أنت ترانا إذا أردنا طبيبا لمرض من الأمراض لم يقنعنا أن نذهب لطبيب عام بل إلى الطبيب المختص بذلك الفرع الذي وجه كل عنايته إليه ، علما منا بسعة العلم وأن الأمور تشتبه وأن الجهل غريزة في البشر ، والضعف طبيعة في الإنسان ، وشعورا بأنه لا يكاد يخلص من سلطان الوهم وظلمات المشكلات والمتشابهات إلا من قتل العلم بحثا ، وأحاط بمناحي التفكير خبرا ، وعرف ضعف نفسه فلم يسارع إلى أول رأي فطير ولا أسبق خيال طائش .

هذا كله مركوز في الطباع ، يعرفه الجاهل والعالم والصغير والكبير والرجل والمرأة ،

فليت شعري هل أصبحت الشريعة أهون من ذلك كله مع ما فيها من الأسرار الدقيقة والمشكلات الخفية والمتعارضات القوية والمرجحات المختلفة والمنسوخات المتروكة والمطلقات المقيدة والعمومات المخصصة والمفاهيم المعطلة والمجملات التي قد يخفى بيانها والظواهر التي لا يراد ظاهرها والمجازات التي تدق قرينتها والكنايات التي تخفى إشارتها وتبعد غايتها ومواقع الإجماع والاختلاف ومباحث القياس المتشعبة ومسالك العلل الخفية وقوادحها المترامية ، إلى أقوال الصحابة المختلفة وآرائهم المتباينة ، وما يحتاج إليه ذلك كله من دقة الفهم وإصابة الرأي وأهلية الحكم وسعة الاطلاع وطول الباع ، بعد معرفة اللغة العربية وفنونها ، إلى آخر ما ذكره الأصوليون في مباحثهم الطويلة العريضة ، خصوصا شروط الاجتهاد المبينة هناك ، حتى قال كثير منهم : إن الاجتهاد لا يتجزأ لجواز أن يكون لبعض الأبواب علاقة بغيره ، إلى آخر ما قالوا .

فلا بد إذن من الرسوخ في جميع الأبواب والإحاطة بمظانها وما عسى أن يكون فيها من مقيد ومخصص ومعارض ومرجح ، إلى غير ذلك ، وهذا بحر لا ساحل له ، ومَهَامِهُ فيحاءَ يضل فيها الخِرِّيت ، ولذلك كان كثير من السلف الصالح يتحرجون من الفتيا غاية التحرج (أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار) .

وقد عرض الخليفة المنصور العباسي وحفيده هارون الرشيد على الإمام مالك أن يحملا الناسَ على الموطإ فأبى ، وإذا حَلَّلْتَ ذلك الإباء وبحثت عن سره وجدته الإخلاص البالغ والدين القيم ، واتهام النفس وعدم تقديسها ، فهو يجوِّز على نفسه أن يكون مخطئا وأن يكون الحق مع غيره ، تاليا قوله تعالى : (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) وقوله عز وجل : (وخلق الإنسان ضعيفا) (إنه كان ظلوما جهولا).

وإن أول شروط الاجتهاد عندي نور البصيرة وصفاء الذوق وقوة الإخلاص وشدة

المراقبة واتهام النفس الباعث على شدة التحري ومزيد الاحتياط ، ولا يكفي في ذلك . سعة العلم ولا كثر الاطلاع

وكم قد رأينا من كبار الحفاظ من هو أكثر حديثا من بعض المجتهدين ، ولكن لم يسمح له دينه أن يدعي الاجتهاد ، علما منه بأنه لم يخلق له ولا وجد فيه استعداده الذي يعرف به روح الشريعة في كل شيء وذوقها في أحكامها ومراميها ، وقد قالوا : إن المحدث كالصيدلي والمجتهد كالطبيب ولا بأس أن أفكهك بشيء طريف له مغزى شريف عن بعض هؤلاء المجتهدين العصريين ، ثم نردفهم برؤسائهم المتقدمين الذين كانوا من سعة العلم بالذروة العليا ، ولكن ليس فيهم أناة الأئمة ولا تحريهم ولا رزانتهم ووقارهم ، بل كانوا أنانيين متبجحين ، وقلما يأتي المتبجح بخير أو يهدي إلى صواب ، وقد قال .) تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون

أما هؤلاء الطائشون فلا يعرفون الصبر ولا الإيقان ، وعلى الجملة فالأمانة تحتاج إلى استعداد خاص في طينة النفس وتكوينها (والناس معادن كمعادن الذهب والفضة) . والنحاس لا يكون ذهبا أبدا ، وإن راقتك صفرته وخفيت عنك حقيقته
: وقد شط بنا القلم ، فلنعد إلى تلك الفكاهة
سئل بعض مجتهدي العصر عن قوله تعالى : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) هل يبقى التحريم في لحم الخنزير إذا أوصلناه من الغليان إلى درجة تقتل كل ما فيه من الديدان التي اكتشفوها الآن ؟
فأجاب مجتهدنا الظريف بأنه لا وجه للتحريم حينئذ ، ويمكننا أن نستنبط ذلك من إلا ما ذكيتم) والتذكية هي التطهير ، فحيث طهر لحم الخنزير) :آخر الآية حيث تقول . مما فيه كان حلالا داخلا في هذا الاستثناء
وهي الذبح ، وبين التزكية – بالزاي – وهي –ولم يفرق حضرته بين التذكية – بالذال

التطهير (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ولا حقق ما يرجع إليه الاستثناء في الآية ، وهذا من البدهيات التي يعرفها صغار الطلبة ، فماذا تقول في هذا الاجتهاد وذلك التجديد العصري ؟

أليس هذا أشبه شيء بقول من قالت : إن النساء أفضل من الرجال بنص القرآن ، ثم استدلت بقوله تعالى : (أصطفى البنات على البنين غير مفرقة بين همزة الوصل وهمزة الإنكار ، فظنت أنه إخبار عن فضلهن ؟ فلا أكثَرَ اللهُ من هؤلاء المجتهدين ولا هؤلاء المجتهدات

جاء في تفسير ابن كثير هذا الحديث الذي رواه الحاكم عن عبادة بن الصامت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (أيكم يتابعني على ثلاث ؟) ثم قرأ قوله تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم..) الخ الآيات ، ثم قال : فمن وفَّى فأجره على الله..) الحديث . قال الحاكم : صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه .

فعلق عليه ذلك المجتهد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى ، فإن الوصايا خمس لا ثلاث ، ولم يبين حضرته في الحديث علة تقدح في صحته غير ما أبداه من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هي الوصايا ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يريد بها الآيات لا الوصايا ، والآيات ثلاث بلا شك ، وقد جاء التصريح بذلك في رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت ، وفيه : (أيكم يتابعني على الآيات) ، ثم تلا (قل تعالوا..) إلى ثلاث آيات .

فانظر إلى تسرع الشيخ واجتهاده الذي يبنيه دائما على شفا جرف هار ، وكم لهؤلاء من

. أمثال هذه التعليقات الحمقاء ، فرحم الله امرءا عرف قدره فلم يتعد طوره

ولنترك هذه الطبقة المتفيهقة المتشدقة على ما بهم من جهل وسخافة ولنرجع إلى من قبلهم من رؤسائهم وأئمتهم لنرى إمامهم ابن تيمية الذي قدموه على جميع الأئمة ، وهم في تلك النزعات الخبيثة على الرغم من دعوى الاجتهاد ، مقلدون له فانون في تقليده ، كيف منع من شد الرحال لزيارته – صلى الله عليه وسلم – وجعل السفر للزيارة سفر معصية لا يصح فيه قصر الصلاة ، خارقا بذلك إجماع المسلمين ، غير مستحي من ! سيد المرسلين

[FONT='Times New Roman','serif'] [/font]

ودليله الذي استند إليه واستنبط منه ما لم يستنبطه أحد من الأولين والآخرين هو منعه – صلى الله عليه وسلم – من شد الرحال إلا لأحد المساجد الثلاثة ، ففهِم من ذلك النهي أن الرحال لا تشد للزيارة ، بناء على خيال قام برأسه أن القصر حقيقي لا إضافي ، ولو كان كما فهم ذلك المجتهد الكبير لكان شد الرحل لصلة الرحم أو زيارة الأخوان أو التجارة أو غير ذلك محرما ، فإذن تقف مصالح العالم وتتعطل أمور الدين !والدنيا

ولو تبصر قليلا لعلم ما أراد – صلى الله عليه وسلم – من أن المساجد متساوية في الفضل فكلها سواء إلا هذه المساجد الثلاثة ، وذلك ظاهر لا خفاء فيه ، فإن الأصل أن الشيء يستثنى من جنسه القريب ، فإذا قلنا : ما مات إلا زيد ،كان معناه : ما

مات إنسان إلا زيد ، وليس معناه : ما مات حيوان إلا زيد ، ومن فهم ذلك كان من الحيوان لا من الإنسان .

على أننا لو جعلنا القصر [FONT='Times New Roman','serif'] [/font]

حقيقيا لفسدت أمور العالم كما قلنا ، والشريعة إنما جاءت بالصلاح لا بالفساد .

ويلتحق بذلك ما رأيناه في (فتح الباري) من قول ابن تيمية المذكور : إنه لم يجمع بين قول إبراهيم وآل إبراهيم في رواية من الروايات التي وردت في تعليم الصلاة عليه – صلى الله عليه وسلم – حين سئل عن ذلك ، مع أن الجمع بينهما وارد في البخاري ، وهو لدى الحفاظ بمنزلة الآجرومية في النحو ، إلى غير ذلك مما هو معروف عنه .

وهو من كبار – أو كبير – أولئك المجتهدين ، ولو لم يكن له إلا ما هو معروف عنه وعن تلميذه ابن القيم خصوصا في نونيته من إثبات الجهة لله تعالى أخذا بالمتشابهات (واغترارا بظواهر الآيات لكان كافيا لكل منصف في تقدير ما لهم من علم وعقل. (5

وإلى فهمه الكاسد (7)الذي ذكره السائل (6)ثم انظر بعد ذلك كله إلى كلامالشوكاني وقياسه الفاسد ، وهو من كبار هؤلاءأيضا.

ما حللناه في :فإن الأحبار والرهبان كانوا يحللون ويحرمون من عند أنفسهم قائلين الأرض فهو محلول في السماء وما ربطناه في الأرض فهو مربوط في السماء ،كما هو معروف عنهم ومسطر في كتبهم المقدسة ، فضلا عن تاريخ الكنيسة أو التاريخالعام.

وأما أئمة المسلمين فلم يدعوا لأنفسهم ذلك المنصب الذي لا ينبغي أنيكون إلا لله ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك أو يصدروا عن غير قول المعصوم وسنته التي همأعرف الناس بها وأحرصهم عليها وقد صرحوا بذلك فقالوا : إذا خالفنا الحديثالصحيح فاضربوا بقولنا عرض الحائط فكيف يحل له بعد ذلك أن يقول : إنكم اتبعتمآراءهم ولم تتبعوا الكتاب والسنة، وكل إنسان يعلم أنهم لم يقولوا من عند أنفسهم ،وإنما يقولون : هذا قول رسول الله وذاك فعله وتلك سنته ، وهم أعرف الناس بذلكوأقدرهم على تعرف ما جاء فيه.

وقد وثق الناس بهم فلم يتهموهم في دينهم ولاعلمهم ولا أمانتهم بعدما عرفوا أنهم يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله صلى اللهعليه وسلم .

وحاشاهم أن يشرعوا من عند أنفسهم وهم خير القرون ، فإن لم يجدواشيئا في كتاب الله ولا سنة رسوله ، اجتهدوا ما استطاعوا ، وهم أعرف بروح الشريعةومقاصدها ومناط أحكامها ، ولو لم يفعلوا ما فعلوا لكانت الشريعة الآن لعبة بيدالجهال كما رأيت فيما تلوناه عليك.

وبالجملة فهؤلاء الأئمة قد نظروا فيالشريعة نظر العالم المدقق والأمين الحذر ، فما وجدوه مجمعا عليه عضّوا عليهبالنواجذ ، وما كان فيه اختلاف أخذوا منه الأقوى والأرجح ، لكثرة من ذهب إليه أولموافقته لقياس قوي أو تخريج صحيح من الكتاب والسنة.

وقد كان هذا ميسرااللطراز الأول من المجتهدين حين كان العهد قريبا والعلوم غير

متشعبة ومذاهب الصحابةوالتابعين معروفة ، على أنه لم ينتشر ذلك أيضا إلا لنفوس قليلة ، ومع ذلك فقد كانوامقتدين بمشايخهم معتمدين عليهم ، ولكن لكثرة تصرفهم في العلم صاروا مستقلين.

وكيف يقيس عاقل هؤلاء الأئمة على أولئك الرهبان الذين لم يدعوا لأنفسهممنصب النبوة فحسب ، بل تخطوا ذلك إلى منصب الإلهية ، فإن النبي يقول من عند نفسه وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) ولذلك قالت الآية (اتخذوا أحبارهم) ورهبانهمأربابا من دون الله)كما المسيح ابن مريم ، فسوت بينهما وقالت في آخرها (سبحانهوتعالى عما يشركون)) .

فهل ترانا أشركنا الأئمة بالله تعالى ، أم ذلك كلام منيرسل لقلمه العنان بما يوجب سخط الله والملائكة والناس أجمعين وقداستتبع ذلك ما لا يحصى من المفاسد التي يرتكبها هؤلاء الجهلة ويتشدق بها أغمار
منينتسبون إلى العلم من زعانف القوم وأراذلهم ، وقد جرّ ذلك إلى استباحة الأعراض ، بلاالأموال والدماء ، فهي من السيئات الباقيات التي عليهم وزرها ووزر من عمل بها إليوم القيامة.
ذلك لا بد منه علىرغم أنوفهم بمقتضى الدلائل : فإن تشبثوا بالقياس والاستنباط ، قلنا العقلية ، حتى قال بعضهم : إن من لا يقول بالقياس لا يعدمن العلماء ولا يعتبر من أهل الإجماع.

وإجمال القول أنهم إذا قالوا : إن كل إنسان يأخذ من الكتاب والسنة ولو لم يعرف الفاعل من المفعول ، فضلا عن دلالة الإيماء والاقتضاء ومسالك العلة وقوادحها ومعرفة المنطوق والمفهوم وما فيه من جدل وكبير عمل ، ومعرفة ما صح وما يعمل به في فضائل الأعمال ، وما يحتج به في الحلال والحرام ، وما قيل في المرسل والمسند ، إلى غير ذلك ، فضلا عما قيل في الرجال من تعديل وجرح ، وهو بحر لا ساحل له ، وما عسى أن يكون في الحديث من علة خفية ، مع معرفة تاريخ الأحاديث ليتميز الناسخ من المنسوخ ، ومعرفة المرجحات عند التعارض ومواقع الاختلاف والاتفاق ، حتى لا يخرقوا الإجماع ..الخ .

نقول : إذا أباحوا للناس أن يأخذوا من الكتاب والسنة مع الجهل بذلك كله ، فقد عرضوا الدين للضياع والشريعة للهزء والسخرية ، وكان ذلك منهم جنونا أو فوق الجنون ، وإن قالوا إنه يقل العالم في ذلك كله فقد هدموا ما بنوا وقوضوا ما شيدوا . فأين يذهبون

وهل هذا إلا رجوع للتقليد الذي منعوه وتفسير للماء بعد الجهد بالماء (8)" .

وبعد فإني أعجب كيف يكلفون أرباب الحرف والصناع وعامة السوقة المشتغلين بمعاشهم وعيالهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة ، وليس ذلك في وسعهم ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ؟ .

ولا أراني محتاجا بعد ذلك للإضافة في الدلائل النقلية والكلام عليها ، فإن الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس ، ولولا ظهور تلك الطائفة التي اقتدت بأسلافها من الخوارج الذين هم أسرع إلى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم من الفَراش إلى النار ، لما تحرك به قلم ولا تفكر فيه أحد.

ولنختم كلمتنا هذه بتلك الحكاية التي تخفف عنك ما لاقيت من تلك الترهات التي يخجل منها العلم ويبكي لها الدين .

قال مولانا الشيخ محمد عليش – رحمه الله – في فتاويه : إن ابن حزم كان له مناظرات مع الباجي ، وهو من كبار علماء المالكية ، فلقي أخاه إبراهيم بن خلف الباجي يوما فقال له : ما قرأت على أخيك ؟

فقال : قرأت عليه كثيرا .

فقال له : هلا اختصر لك العلم فأقرأك العلم في سنة ؟.

فقال : أنا أحب ذلك .

فقال له : أو في شهر ؟.

فقال له : ذلك أشهى إلي.

فقال له : أو في جمعة أو دفعة ؟.

فقال : هذا أحب إلي من كل شيء.

فقال له : إذا أوردت عليك مسألة فاعرضها على الكتاب ، فإن وجدتها فيه وإلا فاعرضها على السنة ، فإن وجدت ذلك فيها وإلا فاعرضها على مسائل الإجماع ، فإن وجدتها وإلا فالأصل الإباحة فافعلها .

فقال له إبراهيم الباجي : أرشدني إلى ما يفتقر إلى عمر طويل وعلم جليل ، لأنه يفتقر إلى فهم الكتاب ومعرفة ناسخه ومنسوخه ، ومؤوله وظاهره ، ومنصوصه ومقيده وعمومه وخصوصه إلى غير ذلك من أحكام ، ويفتقر أيضا إلى حفظ الأحاديث ومعرفة صحيحها من سقيمها ومرسلها ومعضلها وتأويل مشتبهها وتاريخ المتقدم والمتأخر منها ، إلى غير ذلك ، ويفتقر إلى معرفة مسائل الإجماع وتتبعها في جميع أقطار الإسلام ، وقل من يحيط بهذا . اهـ

وقد قال الإمام أبو بكر بن العربي في حق هذه الطائفة في القواصم والعواصم : إنها أمة سخيفة تسورت مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم علي – رضي الله عنه – يوم صفين ، فقالوا : لا حكم إلا لله ، وما أدري أيهما أجهل وأخطر : أطائفة الباطنية ، أو طائفة الظاهرية ؟

هذا وإني ألفت نظرك إلى ما أتى به الخوارج والروافض والمعتزلة والظاهرية والوهابية مما تقشعر منه الأبدان بناء على اجتهادهم المبني على الوهم دون الفهم .

ولنقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان ، إشفاقا على القارئ ، وربما عدنا إليه . مرة أخرى

==============================

: الهوامش

ليت شعري ماذا يريد بكلمة الأموات وماذا دس فيها ، أيريد ألا نأخذ شيئا إلا .(1) عن الأحياء ، وإذًا يضيع الدين كله ، أم ماذا يريد ؟

وليس أدل على ذلك من أن جهلة أتباعهم يجرمون ، بل يكفرون ، من صلى . (2) على الرسول بعد الأذان بلا حياء من رسول الله ، ولا تحقيق من العلم ، ولا احتياط في الدين ، وعندنا خطابات كثيرة من هذا ، وهو أدل دليل على ما ذكرنا ، فإن علماء . المذاهب الأربعة نصوا على استحسانها ، وكم لهم من أمثال تلك المجازفات

وانظر إلى الوهابية مقلدة ابن تيمية وما امتلأ به تاريخهم من حوادث قتل . (3) المسلمين واعتقادهم أنهم يشركون ، فهم يتقربون إلى الله بسفك دمائهم وتطهير ارض . منهم كما هو معروف

وكان من حقه على مذهب هؤلاء أن لا يرثى له فإنه اتخذ هؤلاء المسئولين . (4) . الجاهلين أربابا من دون الله فكان حقه أن يسخط عليه وأن يحذر من مثل فعله

ومن الاجتهاد المضحك قول بعضهم : إن الأمة إذا زنت جلدت مائة إن كانت . (5) بكرا لدخولها في عموم قوله تعالى : (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فإن تزوجت جلدت خمسين بقوله : (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) فالمحصنة عنده أقل من غير المحصنة ، فانظر إلى هذا الاستنباط العجيب ، وأعجب منه: ما نقل بعضهم عن ابن حزم من أن الإنسان إذا

بال في الماء الراكد نجسه لورود النهي في الحديث عن ذلك ، فإن بال في إناء ثم صبه فيه لم يتنجس ، إلى غير ذلك من المضحكات المبكيات من أولئك المجتهدين الذين لا . يأخذون إلا من الكتاب والسنة

: وما أحسن قول ابن الجوزي في حقهم

لعمري لقد أدركت منهم مشايخا = وأكثر من أدركته ما له عقل

لما تولىالشوكاني القضاء قال بعض علماء اليمن : وإنا لا ندري أشر أريد بمن في . (6) الأرض أم أرادبهم ربهم رشدا . وهناك ما هو أشد من هذا من أقوال العلماء في حقه ، . ولا داعي إلنقلها

ذلك أن السائل أورد ضمن سؤاله تشبيه الشوكاني لأتباع المذاهب بأتباعالأحبار . (7) (والرهبان . (العويني

وليت شعري ماذا يريدون منا ؟ أيريدون أن نقلدهم فيما يقولون وهم يحرمون . (8) التقليد ، أم يريدون أن ينازعونا ونحن مجتهدون كما أنهم مجتهدون ؟